المرأة والأسد

بقلم : أمين يوسف غراب

منذ عام أو يزيد كنت أزور السودان . وكنت أنزل ضيفا على صديق لى هناك تربطنى به صلة حب وود منذ عهد بعيد يرجع الى أيام أن كان هو يدرس فى القاهرة وبقطن معى فى بيت واحد فى شارع المرديلى بالجيزة . وكنت أحبه كثيرا وكان هو يحبنى ايضا . ولذلك لما ذهبت اليه فى بلدته التى تجاور الخرطوم كانت فرحته بالفة وسعادته لا حد لها. وكذلك أيضا كانت السيدة الفاضلة والدته . ورغم أننى كنت أرى والدته لاول مرة الا اننى احسست اننى انما أعرفها من زمن بعيد . فقد كانت رغم تقدمها فى السن مرحة ودودا لا تفارق الابتسامة ثغرها . وكانت على ثقافة واسعة وكانت ثقافتها فطرية فهى لا تجيد القراءة والكتابة . ورغم سنها المتقدمة التى أشرت اليها كانت تتمتع بصحة ونشاط قد لا تظفر بهما شابة فى سن العشرين . فقد كانت تجلس تتحدث الينا احاديثها المرحة حتى وقت متأخر من الليل دون ملل أو تعب . ومع ذلك كانت تستيقظ فى وقت مبكر لتصلى الفجر . وكما قال لى ابنها ان هذه العادة لم تفتها طيلة عشر سنوات مضت . وكان أميز مافيها رغم هذه الصفات جميعا حديثها العذب . الذى كان ينسيك حتى الزمن اذا ماجلست تتحدث اليك .

وذات ليلة وكانت من ليالى الصيف هناك . وللصيف فى السودان صفات فيها الكثير من الأذى للنفس وللجسم . ولذلك خرجنا الى السهل وجلسنا فوق العشب نستروح بعض نسمات الليل التى كانت تجىء مضمخة بضوء القمر فتزيل عنا بعض المتاعب . ورحت أنظر الى القمر وهو ينبثق فوق السهل فى الليل فيحيله الى صرح من المرمر . وأعجبنى

المنظر واعجبنى المكان واعجبنى الليل . واعجبنى فوق هـذا كله حديث الخالة «فاروز» فقد كان هذا هو اسمها . وامتد بنا الحديث . تحدثنا عن القاهرة وتحدثنا عن الخرطوم . وتحدثنا عن المراة . وتحدثنا عن الرجل . وتحدثنا عن الحب وتحدثنا عن الزواج . وتحدثنا ايضا عن السحر والخرافات التى تنتشر بكثرة فى السودان وما زال البعض يصدقها الى الآن . وكانت الخالة فاروز من المؤمنات بهذا الحديث الاخير حديث السحر والسحرة . ولذلك حـدثتنا عنه كثيرا . ثم فجاة تركتنا وسرحت ببصرها الى بعيد وراحت تنظـر الى السـهل المنبسـط أمامنا والى القمر الذى ينشر بسـاطه السـحرى عليه . ومن ثم قصت على هذه القصة التى مازلت اذكرها الى الآن . . قالت :

كنت اذ ذاك اقطن فى حضن الجبل وكنت حديثة العهد بالزواج . وكنت أحسن الظن كثيرا بكل زوج فقد كنت سعيدة فى زواجى سـعادة مازلت أحمد الله عليهـا . وكانت تقطن بجوارى صـديقة عزيزة ، يجاور خباءها خبـائى تماما . وكانت متزوجة هى أيضا . وكانت موفقـة فى زواجها كل التوفيق فقد كانت تحب زوجها حبا ملك عليها كل شىء حتى حياتها . وكان زوجها كذلك لا يرى بهجة الحياة الا اذا تطلع الى عينيها الجميلتين ، ولا يستشعر سـعادة الدنيا الا اذا لفها بذراعيه. ولا يعرف نعيم الحيـاة الا اذا ذاقها من بين مراشفها . وظل حالهما كذلك الى ان انتقلنا الى المدينة نحن جميعا الذين كانوا يقطنون حضن الجبل وذلك بعد السـيل العارم الذى جاء عام ١٩٢٠ واكتسح السهل والجبل وشردنا جميعا .

بعد هذا التاريخ انقلبت حياتهما الزوجية شقاء مابعده شقاء ابدا . فقد احب الزوج امراة تعرف عليها فى المدينة . والانسـان يستطيع أن يخفى ما يريد الا عواطفه فهى الشىء الوحيد الذى لا يسـتطيع أن يخفيه ولو اهال عليـه تراب وحجارة هذا الجبـل الأشم الذى تراه امامك . وذلك لان العاطفة مصدرها القلب والقلب لا يعرف المداراة لانه لايعرف المشـاركة فى الحب انه اشبه ما يكون بالقفل الذى ليس له غير مفتاح واحد . فاذا ظفر بهـذا المفتاح احد أصبح هـو المالك الوحيد لهذه الخزانة ولكل ماتحتوى عليه من احاسيس ومشـاعر وعواطف وحتى نبضات . ومن سوء الحظ ، حظ

الزوجة . ان تلك المراة هى التى عثرت على المفتاح وسرقته من الزوجة وفتحت به القفل وسرقت كل مافيه من عواطف ومشاعر واحاسيس وفعلت هذا وهى مطمئنة كل الاطمئنان لانها تعلم جيدا ان هذا الباب باب الخزانة لا يتسع لاكثر من واحدة ولذلك دخلته .

وبدات الزوجة المسكينة تدرك ذلك تماما بان المفتاح فقد منها . فراحت تبحث عنه فى كل مكان فى قبلات الزوج فتجدها باردة ، فى ذراعيه فتستشعر قوتهما وهنا وضعفا وهزالا . فى عبارات الغزل التى كانت تترامى الى اذنيها جافة خشنة كأوراق الخريف فتتجمد لها احاسيسها وتتشنج مشاعرها وتحس عباراتها كالنار تكاد لفحات الجفاف تحرقها وتمزق جسدها تمزيقا .

وظلت المسكينة كذلك تاخذها الدهشة لهذا التغير المفاجىء الى ان تاكدت ذات يوم بأن غيرها سرقت منها المفتاح واستولت على الخزانة وما فيها . فجن جنونها وبدا حجيم حياتها يستعر نارا تاكلها كلما امست وتاكلها كلما اصبحت وبدا الشقاق بينهما . وبدا يغلظ لها فى القول دون ان يدرى وبدات هى تكون كذلك ايضا ولكنها كانت اكثر منه عنفا . كانت ماتزال تحبه واشقى مافى الوجود ان يرى المحب بعينيه اليقظتين حبيبه بين يديه بعيدا عنه . وساءت حال الزوجة الى حد كبير وضاقت بها الدنيا على رحابتها . وغدت فى عينها اشبه ما تكون بثقب فى تنور يتلظى يرسل عليها وابلا من ناره . واباس ما فى هذه النار نار العاشق انها لا تميته وانما تحرقه فقط واباس مافى حرقتها ان جراحها لا تلتئم . وعاشت عاجزة عن ان تفعل شيئا ولا حتى ان تبعد عنها السنة هذه النار . الى ان ترامى اليها ذات يوم بأن رجلا فى اقصى المدينة يشتغل بالسحر . وان فى استطاعته ان يرد اليه المفتاح الذى فقدته ويعيد اليها سعادتها بأن يعيد اليها من تحب وهو زوجها . فراحت المسكينة تحث الخطى اليه وهى غير مصدقة لما سمعت ، وكان الساحر الكبير يعيش فى صومعته خارج المدينة وعلى مسافة عدة اميال منها وكان لا يسمح لأحد بالدخول عليه الا اذا اذن هو له . وكثرة كثيرة من الناس كانت ترتد خائبة لانه كان لا يأذن لها بالدخول : غير انه من حسن حظها كانت الوحيدة التى اذن لها بالدخول فى ذلك اليوم ، ولما مثلت امامه كادت تسقط هلعا من هول

ما رات فقد رات الصومعة ممتلئة بجماجم عدة لآدميين وبرءوس متعددة لحيوانات كثيرة في عدة احجام واجناس. ثم رات ما افزعها فزعا كبيرا حتى كادت تسقط مغمى عليها فقد رات عديدا من الثعابين الحية الكبيرة تروح وتجيء حول الشيخ منها ما يلتف حول خصره ومنها ما يسبح فوق كتفيه ومنها ما يلتف حول عنقه ومنها ما يروح ويجيء تحت اقدامه كل ذلك والشيخ الذى تكاد لحيته الطويلة تبلغ اقدامه يداعب هذا الثعبان ويفازل هذه الحية ويفرس اظافره الطويلة المدببة السوداء فى لحمها فتروح تتلوى بين اصابعه وهو ينظر اليها ويبتسم ضاحكا .

واستردت المراة المسكينة انفاسها بعض الشيء ولما قصت عليه قصتها اشفق عليها الشيخ كثيرا ولا سيما من نار الجراح التى شاهدها بعينه وحدثته هى عنها . ولذلك سالها عدة اسئلة ولما اجابته عليها جميعا . وعرف كل مايريد ان يعرف طلب منها أن تنصرف وان تعود اليه فى اليوم التالى حتى يستشير ذلك الخادم ـ هكذا كان يسمى الشيخ الجان الذين يستخدمهم ـ حتى يستشيره فى امر اصلاح حال هذا الزوج الشارد والحبيب المتجنى ، ويساله عما يريد من اشياء تكون نافعة له فى مهمته .

وانصرفت المراة وقضت ليلها تحسب النجوم وتحصى عددها فى السماء وهى تدعو ربها بقلب يملأه الالم ويملأه ايضا الامل فى ان يوفق هذا الشيخ ويوفق خدمه واعوانه فى أمر اصلاح حالها وشفاء وجيعتها . . وما أن جاء صباح اليوم التالى وحل الموعد الذى حدده لها الشيخ حتى كانت ماثلة امامه . تنظر اليه وكل جوارحها آذان وعيون تريد ان ترى وتريد أن تسمع . وصمت الشيخ قليلا وامسك باظافره الطويلة المعوجة بعض خصلات من لحيته الطويلة فراحت ترتعش وتهتز عند قدميه . ثم بعد صمت طويل همهم بشفتيه المرتعشتين وتلى بعض الفاظ لم تفهم هى منها شيئا . ثم نظر اليها وقال :

ـ ان ما يطلبه الخادم هو ان تنتزعى بيديك هاتين ثلاث شعرات من شارب اسد هصور يتربع على عرشه فى الجبل وهو حى .

فشهقت المراة خوفا وفزعا وأرادت ان تقول شيئا

ولكن الشيخ سبقها يقول وهو يتوارى عن عينيها ويغيب فى قلب صومعته التى يكتنفها الظلام ومعه ثعابينه .

ـ هكذا طلب العفريت فان جئت له بما يريد جاء هو لك بما تريدين . وجعل زوجك بخر ساجدا عند قدميك .

وانصرفت المسكينة تجرجر اذيال الخيبة الابدية اذ ان ما يطلبه منها الشيخ دونه النجوم . دونه الموت والا كيف ستستطيع ان تأتى بثلاث شعرات تنتزعها انتزاعا من بين او من فوق انياب الاسد ، وباتت ليلتها او باتت لياليها تندب هذا الحظ الاسود الذى قرر مصيرها الى الابد . وكانت كلما رات او سمعت عن السعادة التى يعيش فيها الزوج على حساب تعاستها هى احست بحرقة النار . واحست بلذعتها اكثر حرقة كلما استعادت كلمات الشيخ لها وطلبه هذا المطلب الذى لا سبيل اليه . كانت كلما ذكرت هذا نزفت عيناها الدموع واحست بحرقة النار وهى تتزايد يوما عن يوم .

وصمتت الخالة فاروز والدة صديقى التى تروى لى هذه القصة قليلا ثم قالت :

وكان الذى يزيد فى آلام هذه السيدة هو انها كانت تتذكر حضن الجبل وكانت تتردد هذا المكان الذى كان يحلو ان تجتر فيه ذكريات ايامها السعيدة التى ولت . وكان يوجد فى قلب الجبل نفسه اسد مفترس قطع طريق الجبل كله واغلقه على نفسه وما كان من احد صغر ام كبر يجرؤ على ان يمر من ناحية الجبل لا فى الليل ولا فى النهار من هول بشاعة هذا الاسد الذى كان يتربع على عرشه فوق هذا الجبل . وكان هذا الاسد كلما جاء الليل زار زئيرا مرعبا ترتجف له القلوب وكانت صاحبتى كلما كان حالها يستقر بعض الشىء او كادت النار تخبو رويدا ويكحل النوم عينها لساعة او لبعض ساعة . سمعت فى الليل زئير الاسد فتقوم مفجوعة تتذكر حالها من جديد واستحالة اصلاح هذه الحال وهذا هو الشقاء اذ ليس فى الوجود اتعس من انسان قد تقرر مصيره وعاشت زمنا فى غمار هذا المصير الذى تقرر حتى صارت شبحا لامراة وظلا لفرع جاف يلهبه القيظ فيتقلب على الارض فوق النار . وراحت ذات ليلة تفكر ، ان الموت احب اليها من هذه الحياة التى تعيشها فهى ميتة

مينة . فلماذا لاتجرب حظها مع هذا الاسد وهى الرابحة فى الحالتين رابحة ان ظفرت منه بتلك الشعرات الثلاث ففى هذا عودة الحياة اليها ورابحة ان افترسها الاسد اذ أن الموت الحقيقى أحب اليها من هـذا الموت الذى تعيشـه . ولكن ماتعمل لكى تموت أو تحيى ان الحياة شاقة والموت شاق . فماذا هى صانعة حتى تستريح . ولواتتها فكرة . وسألت نفسها . لماذا يفترس الاسد كل من يظفر به ؟؟ لانه كأى كائن حى يريد ان يأكل .. ترى لو قدمت له طعاما شهيا هل يفترسها ؟! ربما . وربما لا . . انه قد يفترسها ان كان الطعام الذى تقدمه له قلة لا يملأ جوفه هذا الضخم وهو جائع ويريد ان يشبع . وقد لايفترسها ان كان ماتقدمه له من طعام كثرة تشبعه وتفيض عليه . ولكن ماهى هـذه الكثرة التى تشبع هـذا الحيوان الكبير المفترس الضخم الذى اذا زئر اهتزت الارض لزئيره ؟! وان هى وجدت هذه الكثرة فما هو السبيل الى تقديمها اليه ؟! وما هو الضمان ليأكل ماتقدمه قبل أن يأكلها هى ؟؟ وخافت وارتعدت لمجرد تخيلها أنها ستقترب من الاسد أو حتى تسير فى طريقه ، ونفضت عن تفكيرها هـذا وعادت الى حالها وتذكر القلب من يحب وتذكر المحب الحبيب الذى هجر والخل الذى غدر . وتذكرت الاسد مرة اخرى . ودوى زئيره فى اذنيها فى تلك الليلة دويا مرعبا . فقد كان من عادة الاسد فى بعض الليالى ان يخرج من حصنه فوق الجبل ويقترب من السهل ويرسل زئيره المرعب المخيف . ونظرت الى أمام فرأت عند الخباء شاة سمينة من غنمها التى كانت ترعاها فى ذلك الحين . فنهضت اليهـا دون ان تفكر ماذا ستعمل وذبحتها وغسلتها غسلا جيدا ثم حملتها على كتفيها وهى تتصبب عرقا وهلعا وفـزعا وهى تسير بها فى الظلام مغمضة العينين حتى لاترى الطريق الذى تسير فيه ويسير فيه الاسـد احيانا وسارت وكأن قوة فوق ارادتها تدفعهـا الى التهلكة وفجأة خرج عليها من قلب الظلام صراخ كأنه النار وزأر الاسد وما كان بينه وبينها سوى خطوات ولكنها من شدة الهلع والخوف القت اليه بالشاة وانصرفت تركض على غير وعى وتعثرت فى الطريق وسقطت على الارض ونظرت سريعا الى الاسد تخشى أن يكون فى أذيالها لينشب انيابه فى جسدها فيمزقه تمزيقا ولكنها لم تره فى اذيالها كما ظنت ولم تره يقطع لحمها قطعا قطعا . وانما راته فى مكانه من الشاة يلقى بصدره الضخم فوقها ناشبا انيابه فى قلبها هى . ويقطعها قطعة قطعة

وهو سعيد سعادة كادت تراها فى عينه التى كان بريقها يلتمع فى عينها فى قلب الظلام ولاتدرى كيف ذهبت الى بيتها بعد ذلك وانما الذى تدريه حقيقة لانها تعرفه جيدا ولمسته بيدها . انها فى الليلة التالية وفى نفس اللحظة التى سمعت زئير الاسد فيها كما سمعته تماما فى الليلة الماضية . فعلت كما فعلت فى شاة اخرى ثم حملتها سريعا وراحت تسير بها فى جنح الظلام وكل املها فى هذه الليلة ان يكتب الله لها فيها النجاة كما كتبها لها بالامس . وفجاة دوى زئيره فى اذنيها كما دوى فى الليلة الماضية تماما . فالقت اليه بما تحمل وارتدت سريعا تماما كما فعلت بالامس ايضا . ولكنها لم تتعثر هذه الليلة فى خطواتها وتسقط على الارض وانما ارتدت ببصرها الى الخلف فرأت الاسد مكبا بصدره فوق الشاه يفعل بها كما فعل بالامس وسعادته هى نفس السعاده بل تزيد عليها شيئا .

وطمأنها هذا بعض الشىء وظلت كل ليله تذبح شاه وتنتظر حتى تسمع زئيره فتهرع وتلقى اليه بالشاه سريعا. وتنصرف سريعا ايضا ... وفكرت ذات ليله وفكرت طويلا على غير العادة . هل لو كان الاسد يريد ان يفترسها هى او حتى كانت تراوده هذه الفكرة فلماذا لم ينفذها فى الليله الاولى التى راها فيها رؤيا العين لاول مرة او لماذا لم ينفذها فى الليلة التى تلتها او الليالى التى جاءت بعد ذلك ؟؟ ... ان الاسد من غير شك له فكر وله عقل .. وهو لايريد غير ان يأكل وان يمتلىء جوفه ولاسيما بهذا النوع الشهى من الطعام . وهى تطعمه كل ليلة وتقدم له فى كل ليلة حملا شهيا لذيذ المذاق . فهو ليس بالمجنون حتى يفترسها . لانه ان فعل فسوف يحرم من غير شك من هذه النعمة التى تقدمها اليه فى كل ليلة .

وكانها اطمانت الى هذا ووثقت منه . ولذلك عندما حملت اليه طعامه فى الليلة التالية . حملته اليه وهى مطمئنة ولما سارت فى الطريق اليها ولفها الظلام كانت اكثر اطمئنانا . وايضا لما دوى زئيره فى الليل فجاة وكاد يصم آذانها لم تهلع ولم ترتعد ولم تتصبب عرقا كما كانت تفعل فى كل ليلة وانما تقدمت منه فيما يشبه الثبات والثقة والقت اليه بالحمل الطازج الشهى ووقفت فلم ينشب انيابه فى جسدها ويقطعها قطعا قطعا . وحتى لم يزئر فى وجهها كما كان يفعل كل ليلة

وانما وقف يبصبص لها بذنبه وكأنه يشكر لها هذا الصنيع ، ولما تركته وانصرفت فى هدوء نظر اليها وهى تنصرف نظرات كأنها تنم عن الشكر أيضا والشكر الجزيل . وطمأنها هذا كثيرا وجعلها فى الليلة التالية اكثر اطمئنانا لانها لما ذهبت اليه والقت امامه بالشاة لم تنصرف ولا حتى بعد ان بدأ يأكل وانما جلست واقفة تنظر الى عينه ولما رات فيها السلام حقيقة جلست بجواره وهو يلتهم طعامه فى نهم ممزوج بسعادة لاحد لها . ولما اكل طعامه نهض وهو يلعق شاربه الطويل المدبب الشعرات بلسانه . فنهضت هى أيضا وسارت فى الطريق وهالها او اسعدها أن راته يسير بجوارها . وكأنه حارس امين يتبع سيده الى ان بلغت مشارف السهل فتركها وعاد الى حصنه فى الجبل ولكن بعد ان مسح على طرف ثوبها براسه وكأنه يودعها الى لقاء ثان وثالث . وسرها هذا كثيرا وثلج صدرها وفتح ابواب السعادة والآمال العراض على مصراعيها امام عينيها لانها مدت يدها ومسحت بها على راسه وهى تودعه ايضا ولمست انامله مصادفة وهى تفعل اطارف شاربه المدبب وكأنها لمست شفاف قلبها . وواتتها فكرة سريعة وسريعة جدا لماذا هى لاتنتهز هذه الفرصة وتنتزع من هذا الشارب الشعرات الثلاث التى فى حياتها ودنياها بل ووجودها كله . ولكنها كانت اكثر فطنة من أن تفعل . انها ان انتزعتها الآن عنوة ربما آلمه ذلك وظن بها السوء فيتفرسها فجاة . وله العذر فى ذلك هل هو يدرى انها لاتريد منه غير هذه الشعرات فقط ؟؟ لا لن تفعل وانما ستفعل شيئا آخر سوف لايؤلمه ابدا . وسوف لايجعله يفطن الى مافعلت حتى ولو انتزعت شاربه كله .

وذهبت اليه فى الليلة التالية وقدمت له طعامه فى نفس الموعد . وحين تم جلست بجواره وهو يأكل تلاطفه وتداعبه وتربت بيدها حينا على ظهره وتمسح بها حينا على راسه وهو يأكل سعيدا جدا بمداعبتها وبلذة اللحم الشهى الذى يلوكه بين شدقيه ويمزقه تمزيقا بأنيابه . وانتهزت هى هذه الفرصة التى مابعدها فرصة وامسكت بمقص صغير كانت قد أحضرته معها لهذا الغرض ودون أن يراه حتى لايفطن اليه فيظن أن هذا سلاح تريد أن تقتله به فيقتلها هو . وقصت بعض شعرات كثيرة من شاربه وهو يبصبص لها بذنبه حينا ويلوك قطعة كبيرة من اللحم بين أنيابه التى كانت تراها تلتمع

فى الظلام كما تلتمع فى الليل اسنة الحراب تماما . وتركته وانصرفت وسعادة الوجود كله تسير فى ركابهافىهذه الليلة.

ولم تدر بعد ذلك ما الذى حدث على وجه التحديد هل اطبقت عليها الفرحة حتى انستها وجودها . أم ظلت طوال الليل لم يغفل لها جفن لكى تكون أول من يرى ضوء النهار فتهرع بالشعرات الثلاث الى الشيخ . أم هى نامت واستغرقت فى ثبات عميق حتى اشرق الصبح . واسرعت تسبق خطوها الى صومعة الشيخ والشعرات الثلاث فى يدها لم تدعها منها لا فى النوم ولا فى اليقظة . لم تدر شيئا من هذا كله . وانما الذى تدريه هو أنها رات نفسها فجاة واقفة امام الشيخ فى صومعته والشعرات الثلاث فى يدها وتقص عليه قصتها مع الاسد . والشعرات التى انتزعتها بيدبها من شاربه .

ونظر الشيخ اليها بعد أن قصت عليه مافعلت وقصته بدقة .

ومد الشيخ أظافره السوداء المدببة الطويلة وامسك بلحيته المسترسلة التى راحت تهتز عند قدميه فوق الارض ومن ثم راح يضحك ويغرق فى ضحك طويل .

ونظرت هى اليه فى دهشة بالغة وسألته ذاهلة عما يضحكه الى هذا الحد .

فقال الشيخ وهو مازال يضحك ولحيته تهتز فوق الارض .

ـ اننى اضحك منكن ايتها النساء . تقدرن على ان تروضن الاسود وتجئن الى لكى اروض لكن الرجال .